Tue . 21 June . 2011 ON:17023
الثورة
الثلاثاء 20 رجب 1432هـ
21 يونيو 2011م العدد (17023)

النقد التأثري في ضوء المنهج الموضوعي

«.، لقد ازدهرت الحياة الفكرية في عصر النهضة الأوروبية وبسبب التأثر القائم على التبادل الثقافي بين الشعوب تنوعت الاتجاهات النقدية وتطورت بشكل سريع فظهر النقد الانطباعي إلى جانب النقد الموضوعي أحكاما غير متأكد منها ، وبخاصة إذا طبق نظريات علمية جافة وقوانين صارمة على الإبداع الأدبي ، ولهذا لا يمكن للنقد الانطباعي أو التأثري - كما يسميه »جول لومتر« نفسه - أن يصير نقداً موضوعيا بالمعنى الذي يفهمه أنصار النقد الموضوعي ، لأنه نقد ذاتي ينبع من روح الناقد وأحاسيسه الذاتية ،والنقد - في نظره - لا يمكن ان يكون غير ذلك، لأن الفن ذاته لايمكن أن يكون موضوعياً فكيف للنقد أن يخرج عن ذاته؟ لأن في كل إنسان جانباً من »أنا« وأن هذا الجانب يمكن أن يثير الاهتمام عند الآخرين، وفي الواقع لا بد من الاعتراف بأننا لا نتحدث إلا عن ذاتنا في كل مرة ، لا نجد لدينا القدرة على الصمت وأن كل ناقد يتحدث مرة نفسه عندما يكتب عن أديب أو شاعر، ولهذا يقول »جول لومتر«: إننا لا نحب المؤلفات الأدبية لأنها جيدة ، وإنما تبدو لنا جيدة لأننا نحبها«.

د.أحمد طالب

ولد »جول لومتر « في ٢٧ أبريل ١٨٥٣م، كان أبواه يقومان بالتدريس ، فنشأ هذا الناقد في بيئة مدرسية خالصة ، إذ عرف الكتاب منذ كان طفلاً ، حتى أصبح لعبته المفضلة، ومع طول المدة نشأ نوع من التآلف بين »جول لومتر« والكتاب الذي أصبح لا يفارقه أبداً وتطورت هذه العلاقة إلى أقصى حدودها فشغف بالقراءة التي ملكت عليه عواطفه، فأصبحت عادة في نفسه، وقد أدرك تماماً بان القراءة سبيل من سبل الوصول إلى العلم والمعرفة بالإضافة إلى تربية الذوق وتنمية القدرة على الحس الفني والجمالي، وبخاصة عندما تكون القراءة عن رغبة شخصية وليس عن إكراه وإلزام خارجي.

وغالبا من كان يقع الاختيار على »جول لومتر« لقراءة الشعر، وهو لم يتجاوز السابعة من عمر للانفعال الشديد الذي كان يهزه إلى حد البكاء أحياناً لشدة تأثره بالقصيدة الشعرية ، والانغماس فيها بكل جوارحه وعواطفه.. و»القارئ الذي يملك الذوق الأدبي الراقي، والحاسة الفنية المرهفة ، يقدم لنا انفعالاته الذاتية، بعد قراءة النص الأدبي في صورة نقد أدبي، وذلك إذا كان قارئا قد وصل إلى مرتبة الكمال ، في تكوينه الأدبي وتربيته الفنية أما القارئ الذي لا يملك الذوق الأدبي، ولا الحاسة الفنية والجمالية فلا يستطيع تقديم نقد حقيقي عن تلك الأعمال الأدبية لأن الشرط الرئيسي منعدم من الأساس، وهو التذوق الفني والجمالي للأعمال الإبداعية كيفما كانت أنواعها شعراً أو نثراً.

شغف »جول لومتر« بالقراءة – كما ذكرنا – وقد وجد في الأعمال الأدبية الإبداعية لونا من المتعة الفكرية القوية التي نمت فيه حاسة التذوق الفني والحس المرهف ،مما جعله يطرد من المدرسة الدينية، وهو في العاشرة من عمره، لأنه قرأ المسرح الكامل لـ»راسين« بالإضافة إلى شعر »كورني« وكانت المدرسة الدينية ، تمنع مثل هذه الأعمال الأدبية ظنا منها بأنها تفسد شعور الأطفال.

ولم يمنعه هذا الإجراء الظالم من مواصلة القراءة ، التي أصبحت عادته المفضلة بل واصل قراءة الأعمال الكاملة لكبار الكتاب في سن مبكرة كما استطاع تذوق الأدب الرفيع بشعور وإحساس مرهف.

التحق »جول لومتر« بمدرسة المعلمين العليا بـ»باريس« ، إذ عثر على المناخ المناسب للارتقاء بقراءته من مرحلة التذوق الفني إلى مرحلة التحليل الناضج، وقد وجد في هذه المدرسة التوجه الأدبي المتميز المناسب لطبيعته الخاصة ، بالإضافة إلى الفهم والتحليل والبحث عما يكمن داخل الإبداع الفني من جمال، وعلى الرغم من قراءته لجميع الأعمال الأدبية كان يتهم نفسه في أغلب الأحيان بالكسل والارتخاء.

تخرج »جول لومتر« من المدرسة العليا للمعلمين والتحق بالتدريس في فرنسا ثم الجرائز. واختار حياة العزلة للتفرغ للقراءة ، وهكذا اطلع على كثير من الكتب والمجلات الادبية حتى أصبحت القراءة حاجزا جميلا ، يفصل بينه وبين كثير من الذين لا يرغب في النظر اليهم لبشاعتهم كما يرى.

ومما فعله »لومتر« مع طلبته هو تدريبهم على اكتساب عادة القراءة، لأنه فيما يرى إن متعة القراءة أمر طبيعي وأولي يجب الوصول إليه أولا وقبل كل شيء، وأن الأدب هو التمتع بقراءته الى حد الإغراق في اللذة الأدبية الخالصة، والاندماج في الجو السحري الجميل الذي يمثله الأدب الرفيع الذي لا يخلو من روعة..واصل « لومتر « منهجه في تدريب طلبته على حب القراءة والتذوق والوقوف على أسرار الجمال الأدبي، على الرغم من اعتراض بعض أوليائهم على طريقة التدريس، وما يلفت النظر هو حبه لكل الكتب التي قرأها لأنها كما يقول: « هي حقيقة حتى الخرافات منها «.

وهو يدعو الناقد الى اكتساب عادة القراءة اللازمة الطويلة والكثيرة لجميع المؤلفات بدون استثناء حتى يكتسب من خلالها الذوق الجمالي، ويستنتج منها مقومات الأدب الفنية، وبهذه الطريقة يصل الى حب الأدب الى حد الانفعال المباشر التام.

سخر لومتر من الاتجاهات النقدية، التي سلكتها المدارس المختلفة في تاريخ النقد الأدبي في القديم والحديث، فقد كان الناقد لا يفتح كتاباً للمتعة الفكرية وإنما لينقده ويحكم عليه..ففي العصر اليوناني كان النقد الدبي تحليلاً أخلاقياً وفلسفياً وطبيعياً وأحكاماً من وجهة نظريات أخلاقية وفلسفية وعلمية.

وورثت أوروبا ما خلفه اليونانيون من علم وفلسفة، إذ جعلت منه أساساً تقلده وتسير على منواله، وأخذت العصور الكلاسيكية في التبلور والتكوين في بلاد أوروبا المختلفة جاعلة التراث اليوناني والروماني ركناً أساسياً لأسلوبها في فهم الأدب ونقده، ففي العصر الكلاسيكي فرضت على الأدب والنقد الأدبي قواعد صارمة محددة مسايرة لروح العصر وكان طبيعياً أن يتأثر علم الجمال بذلك التيار العارم، وأصبح الإنتاج الفني صورة لجمال ثابت مستقل عن الزمان والبيئة ومماثلاً لحقيقة لا تتغير من الطبيعة الإنسانية. وكما قال « بوالو «: إن الحقيقة لا تتغير والجميل أيضاً لا يتغير وإذا أردنا الوصول الى إنتاج ذلك الجمال الثابت فإنه لمن الواجب الخضوع لقواعد غير قابلة للتغيير..

وبقي النقد الأدبي يعاني من هذه القواعد الصارمة التي فرضها المجتمع على النقاد كما لم تتمكن العبقريات الفردية–التي كانت تحاول التجديد– من الظهور الى أن أخذت بوادر حركة أدبية جديدة تلوح في الأفق أوائل القرن التاسع عشر وهي الحركة الرومانسية وهي حركة ضد الكلاسيكية وضد مفاهيمها الأدبية النقدية، فإذا كانت الكلاسيكية تعتقد بأن الجمال ثابت والطبيعية البشرية واحدة فإن الرومانسية ترى بأن الجمال متغير ومتبدل والطبيعة البشرية متغيرة أيضاً ومتطورة، ومن هنا صار الناقد الرومانسي يبرز ذلك الاختلاف ويدعو الى التحرر من تلك المفاهيم الجامدة والقواعد الخاطئة التي دعا إلها الكلاسيكيون.

وفي ظل هذ المدرسة الجديدة أصبح النقد الأدبي صورة للعبقريات الفردية، فتعددت بذلك المدارس وتنوعت مذاهبها، وصار البحث عن الجمال في النص الأدبي بديلاً للبحث عن العيوب فيه، وقد رأوا أن تلك الأخطاء ربما تكون جزءاً من الجمال.

وقد يرى بعض الباحثين بأن النقد الأدبي بمعناه الحقيقي ولد في هذا العصر وأصبح له قواعده وأصوله الفنية الخالصة، وقد أكد « البير تيبودي « أن النقد ظهر في العصر الرومانسي بينما ظهرت الأحكام في العصور التي كانت قبله.

ازدهرت الحركة النقدية في أرجاء أوروبا، وظهرت عديد من المدارس النقدية التي تنوعت اتجاهاتها واختلفت مناحيها وأساليبها في فهم الأدب ونقده، وقد تطور « الأدب النقدي « على يد « سانت بيف « الذي اعتبر خالق الأدب المبتكر المبدع، فقد وضع أمام النقاد نماذج مثالية يسيرون على منوالها وهو يرى من الخطأ الاعتقاد بأن النقد الأدبي يعيش عالة على إنتاج الآخرين، إذ يمكنه الوصول الى الخلق الفني.

وكان « سانت بيف « يريد من خلال هذا النقد بناء (علم الإنسان) أي فهم الروح الإنسانية، والوصول الى أعماق الطبيعة البشرية لكتاب التاريخ الطبيعي للأدب، وقد استطاع بفكره أن يتسلل الى أعماق المبدع ليكشف عن الأسرار التي دفعته للكتابة. ولهذا احتل الأديب عنده مكان الصدارة، أما إنتاجه الإبداعي فيأتي في المرتبة الثانية، ومن الأدب نستطيع معرفة الكاتب وليس العكس.

طغت الروح العلمية في القرن الماضي، وكان طبيعياً أن تسيطر على مختلف الدراسات، من بينها النقد الأدبي، فظهر « تين « وهو احد كبار النقاد١٨٩٣–١٨٢٨ (م)، حاول وضع « علم الاجتماع للأدب « بإقامة قواعد صارمة تفسر الأدب، وهي العوامل الثلاثة: العنصر أي الجنس، والبيئة، واللحظة المناسبة ويقصد بها العصر، وهذه هي الدوافع الموجهة للأدب، وقد يقتصر هذا النقد على الجانب الاجتماعي دون الوقوف على الجانب الجمالي للعمل الإبداعي. ومن هنا يمكننا إدراك ضعف المنهج بسبب روح التقنين.

ويأتي الناقد « برونتي « الذي حاول الاستمرار في هذا الاتجاه مع الاستفادة من نظرية « داروين « (١٨٠٩–١٨٨٢م) في التطور، التي طبقها على الأدب، فبلغ بذلك النقد الأدبي أقصى درجة من التقنين العلمي، كما ساير الكلاسيكيون في اعتقاداتهم بأن الحقائق ثابتة في الأدب، وأن النقد الأصيل يكمن في الحكم على هذه الحقائق، وقد هاجم مدرسة الفن للفن وأنصار النقد التأثري الذين يدعون إلى حب الأدب بدل الحكم عليه والبحث في أخطاء فيه.

استفادت فرنسا بعد ثورة١٧٨٩ م عن طريق الترجمة من ألمانيا التي ظهرت فيها تيارات نقدية جديدة إذ أسهمت مدام دو ستا١٨١٧–١٧٦٦ »م« بكتابها الشهير عن المانيا في اصلاح الفكر الفرنسي وخاصة النقد الأدبي وقد ركزت على الاستمتاع بالنص والكشف عن جماله الاصيل بدلاً عن البحث في عيوبه سار »شاتوبريون« ١٨٤٨–١٧٦٨ »م« اهتمها الخاص١٨٤٨–١٧٦٨ »م« على هذا المنهج داعياً إلى الغوص في النص لتعيين مواطن الجمال فيه، لإبرازها والاستمتاع بها والاهتمام بالعبقرية الفردية ومميزاتها الخاصة، حتى لا تغطيها صور المجتمع الذي تعيش فيه.

ويأتي الناقد أرنست رينان الذي أعلن بأن العمل الفني هو ذلك الذي يمثل الجمال الخالد اللانهائي للطبيعة الإنساني، وأكد أن كل شيء يثير الإعجاب والنقد، ولعل هذه الأفكار وغيرها مهدت – بصورة تدريجية – للمنهج التأثيري.. وقد استفاد جول لومتر من آراء رينان ومن أصحاب الاتجاه الفردي في الأدب والنقد.

خصص جول لاومتر وصديقه أناتول فرونس اسم النقد التأثري لمذهبهما هذا على خلاف ما ذهب إليه خصمهما برونتيير الذي سمى هذا الاتجاه النقدي بالنقد الشخصي تارة وبالنقد القائم على اللذة تارة أخرى، وإن كنا نذهب إلى ما ذهب اليه لومتر وأناتول فرونس ومعظم الباحثين بالإضافة إلى تاريخ النقد الأدبي فإننا نلاحظ بأن التعريف العلمي السليم لم يكتمل لهذا المصطلح النقدي وحتى الشرح الذي وضعه برونتيير ينقص من شأن هذه الظاهرة الأدبية كما أنه يتنافى والروح العلمية السليمة لأنه بني على المعارضة أساسا.

لقد ظهر مصطلح النقد التأثري في فرنسا في القرن التاسع عشر الميلادي، وإن كانت هذه الظاهرة النقدية موغلة في القدم، فإن المصطلح ظهر متأخرا وكان ظهوره طبيعياً في هذه الحقبة الزمنية التي شهدت تطوراً ملموسا في مختلف المجالات الأدبية والنقدية والفنية عامة كما مهدت أفكار الناقد أرنست رينان الذي صرح بأن الإبداع الفني ما هو إلا ذلك الذي يمثل الجمال الخالد اللانهائي للطبيعة الإنسانية وإن كل شيء يثير الإعجاب. والنقد مما جعل لومتر يستفيد من هذه الأفكار القيمة لاستكمال منهجه النقدي.. ومما زاد من تطور المنهج النقدي التأثري طابع الصراع والمعارك الفكرية التي أثارها برونتيير الذي آمن بنظرية داروين بالنسبة لتطور الأنواع الأدبية في الوقت الذي كان جول لومتر وانتول فرونس واتباعهم يؤمنون بالذوق الأدبي والإحساس به بدل تقنينه والحكم عليه.

فالمقالة التي نشرها الناقد برونتيير في مجلة العالمين أحدثت أثراً عميقاً في تاريخ النقد الأدبي لأنها كانت بمثابة هجوم صارخ وعنيف ضد المنهج النقدي التأثري كما أنها كانت بداية الصراع النقدي بين المدرستين التأثرية والموضوعية، فلم يسكت كل من جول لومتر وانتول فرونس إذ كتبا مقالات للرد على خصومهما وبخاصة برونتيير ومن حدا حدوه مبينين خصائص ومميزات النقد التأثري وموضحين أهميته بالنسبة للاتجاهات النقدية الأخرى.

لقد خصص جول لومتر كتاباً أسماه المعاصرون للرد على خصومه كما ألف أناتول فرونس كتاباً آخر على المنوال ذاته عنوانه الحياة الأدبية وإن كان لومتر في كتابه يعترف بوجود مفهومين للنقد الأدبي المفهوم الأول ينحصر في موافقة الإنتاج الأدبي للقوانين الضرورية للنوع الأدبي الذي ينتمي إليه هذا الإنتاج مع انتمائه لروح العصر ومراعاة الأخلاق العامة والأوضاع الاجتماعية وأن يكو ن مناسباً للحظات التغير والتطور التي تطرأ على هذا النوع الأدبي أما بالنسبة للمفهوم الثاني فقد يهدف إلى تجسيد وشرح الانطباعات التي نتلقاها من الإنتاج الأدبي والتي تترك فينا شعوراً غامضاً من الأحاسيس العميقة وقد سمى لومتر هذا الاتجاه بالنقد التأثري دون أن ينكر وجود النقد الموضوعي على خلاف من صديقه اناتول فرونس الذي ينفيه تماما بحجة أن النقد الموضوعي لا وجود له وإن أولئك الذين يدعون أنهم يصنعون في الإنتاج الأدبي غير روحهم الخاصة وما هم مخدوعون بأكبر خرافة وقد ارتأى بأن أصحاب النقد الموضوعي يصدرون أحكاما قائمة على حقائق ثابتة وهذا فهم خاطئ لأن الحقائق الثابتة مجالها العلوم الدقيقة مثل الرياضيات ولا تنطبق أساسا على سائر علوم الفنون ومن بينها الأدب كما أن العلوم الدقيقة لاتقوم هي الأخرى على أساس مجرد الإحساس والشعور والتأثر كما هو الشأن بالنسبة لعالم الفنون والأدب.

فالفن عموماً لا يستطيع في نظر أصحاب النقد التأثري– أن يتقيد بقيود تفرضها القوانين الجامدة ولا يلتزم بقواعد ثابتة جافة إذ هو عالم حر طليق تنتجه عبقريات فردية.

تتفاوت من حيث القدرة على الإبداع الأدبي والفني.. وقد نبه « أناتول فرونس» أنه» ليس من شك في أن الشعر والشاعر لن يصيرا في يوم من الأيام موضوعا يعالجه العلم البحثي.

فالصور الرائعة الجميلة الغامضة والعميقة المليئة بالأسرار ،هي من صميم الفن وليس من شك في أن أكثر ما يجذبنا إلى الإنتاج الجميل ،هو ذلك الغموض والاسرار التي تكمن فيه.

ويرى أصحاب النقد التأثري أيضاً بأن النقد الموضوعي ليس سوى ايديولوجية تقتل تلك اللذة والمتعة الفكرية التي تتولد داخل نفوسنا من خلال تذوقنا ورغم هذا فقد أثبت النقد التأثري جدارته من خلال كونه نظرية نقدية أسهمت في الكشف عن المتعة الفكرية في العمل الإبداعي ،كما أنه يأتي في المرحلة الأولى للعملية النقدية قبل النقد الموضوعي ،فالقارئ يمر حتماً بانطباع أولي ،فيتأثر بالموضوع والأسلوب واللغة وشخصية الكاتب. بينما تتبع هذه المرحلة القراءة الموضوعية للنص لاكتشاف الحقائق بعيداً عن العاطفة الجياشة والانفعالات الذاتية المؤثرة. وقد أكد « لانسون» مؤسس منهج التاريخ الأدبي الفرنسي ،على أهمية هذا النقد كمرحلة ضرورية ،للانفعال الذاتي المفروض علينا في البداية ،قبل المرور إلى المرحلة النقدية الثانية الموضوعية، حيث تبدو الحقائق العملية جلية واضحة تماماً.

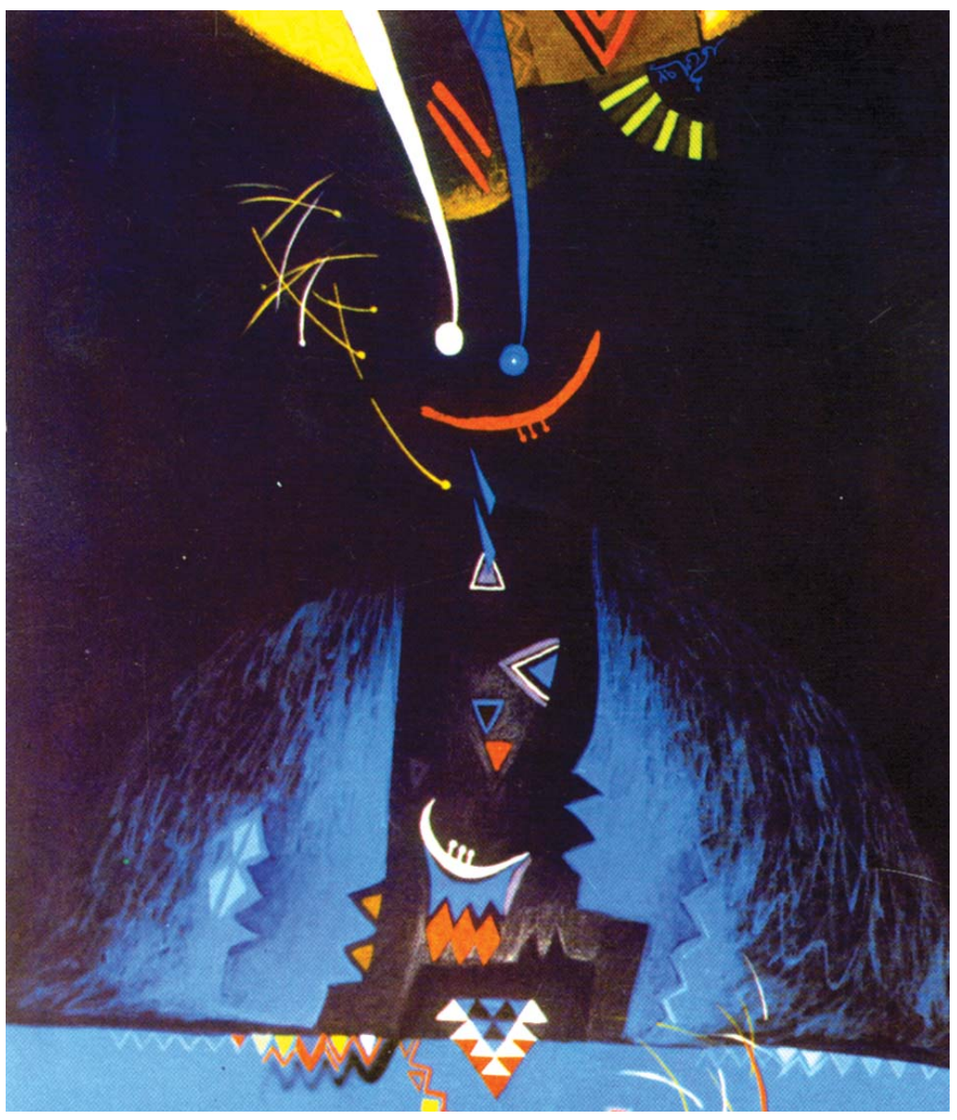

إصدارات ثقافية

الفيلسوف مونتسكيو

قامت بتأليف هذا الكتاب الباحثة سوزان غوردون المختصة بتاريخ الفكر الفرنسي عموماً وفلسفة مونتسكيو على وجه الخصوص. وهي هنا تقدم صورة تاريخية متكاملة عن هذا المفكر الذي عاش في عصر التنوير واخترع نظرية الحكم الحديث القائم على الفصل بين السلطات. ومنذ البداية تقدم المؤلفة لمحة عامة عن حياة هذا المفكر الكبير وتقول بما معناه:

ولد مونتسكيو في جنوب غرب فرنسا بالقرب من مدينة بوردو عام ١٦٨٩ ومات عام ١٧٥٥ عن عمر يناهز السادسة والستين عاما. وكانت عائلته أرستقراطية غنية ولذلك فلم يعاني من الفقر في حياته كما حصل لجان جاك روسو مثلاً. وعلى الرغم من أنه تلقى تربية مسيحية في طفولته سواء في البيت أو في المدرسة إلا أنه راح يبتعد عن الدين بشكل واضح بعد أن كبر.

وقد تجرأ عندما كان عمره عشرين عاما على التصريح بما يلي: إن فلاسفة الإغريق لا يستحقون اللعنة الأبدية على الرغم من وثنيتهم. بمعنى آخر فإنهم لن يذهبوا إلى جهنم وبئس المصير كما يعتقد رجال الدين.

وكان هذا الكلام خطيرا آنذاك لأن المجتمع كله مضاد له وبالأخص البابا والكنيسة والكرادلة والمطارنة. فكلهم مقتنعون بأن سقراط وأفلاطون وأرسطو سوف يكون مثواهم في النار لأنهم عاشوا قبل ظهور المسيح ولم يتعرفوا على الإنجيل.في الواقع أن مونتسكيو كان مستنيرا منذ بداية حياته الفكرية.

ولذلك وقف في وجه التعصب المسيحي السائد في عصره واتبع طريق العقل والانفتاح والتسامح. وقد انتسب إلى أكاديمية بوردو منذ بداية حياته العلمية ثم انخرط في دراسة الفيزياء والرياضيات.ودرس نظريات نيوتن عن نظام الطبيعة قبل أن يتفرغ للفلسفة والدراسات السياسية. وكان أول كتاب كبير أصدره بعنوان:

الرسائل الفارسية عام ١٧٢١: أي وهو في الثانية والثلاثين من عمره. ولكنه أصدر قبله كتابين أقل أهمية.والفكرة العامة لهذا الكتاب هي التالية: كان مونتسكيو يشعر بأن العقائد والعادات القديمة السائدة في عصره أصبحت مهددة بالانهيار بعد أن هيمنت على فرنسا طيلة قرون وقرون.

وكان يعتقد أن المجتمع الفرنسي أصبح مريضاً ويبحث عن علاج أو عن تحول ينقله من الفكر القديم إلى الفكر الجديد. ولذلك حاول مونتسكيو أن يكون الطبيب الذي يجد لمجتمعه العلاج الشافي كبقية الفلاسفة الكبار. والواقع أن كتاب الرسائل الفلسفية يحتوي في طياته على بذور كتابه الكبير القادر: روح القوانين.

وقد نشر كتابه الكبير على هيئة رسائل كتبها أمراء فارسيون زاروا فرنسا في تلك الحقبة ودرسوا عاداتها وتقاليدها.

ومن خلالهم راح مونتسكيو ينتقد بشكل هجائي لاذع العادات الفرنسية والتعصب الديني السائد في عهد لويس الرابع عشر وخلفه لويس الخامس عشر. كما وانتقد نظام الحكم المستبد، ولكن دون أن يتحمل أي مسؤولية لأنه وضع كل ذلك على لسان أشخاص أجانب يبعثون بالرسائل إلى بعض مواطنيهم في إيران. وقد نشر مونتسكيو كتابه بدون توقيع في مدينة امستردام بهولندا حيث كانت الحرية متوافرة هناك أكثر من فرنسا.

والواقع أنه كان يخشى أن يلاحقوه إذا ما عرفوا أنه هو مؤلف الكتاب. وعادة نشر الكتب بدون توقيع كانت شائعة في تلك الأزمان لأن الكنيسة المسيحية كانت تلاحق الفلاسفة والعلماء وتعاقبهم أشد العقاب إذا ما خرجوا على عقائدها. فديكارت مارس هذه العادة، وكذلك غاليليو، واسبينوزا، وعشرات غيرهم.

كلهم نشروا كتبهم من دون توقيع.والواقع أن مونتسكيو كان كارهاً للاستبداد والأصولية الدينية. وعلى الرغم من أن أمه ربته على حب المسيحية إلا أنه تخلى عن ذلك لاحقا عندما اكتشف تواطؤ رجال الدين مع الأغنياء والأقوياء والحكام. وقد هاجم هذه الظاهرة في كتابه السابق: اعتبارات وخواطر حول سياسة الرومان (١٧١٦).

وفيه يقوم بحملة شعواء على نفاق بعض رجال الدين المسيحيين الذين يخدرون الشعب بمواعظهم لكيلا يثور على الظلم والاستبداد. ولكنه يفعل ذلك بشكل غير مباشر لكيلا يتعرض للمساءلة والمعاقبة.ثم تردف المؤلفة قائلة: قبل أن يصوغ مونتسكيو شكل الحكم العادل والصحيح راح أولاً ينقد أسس الحكم السابق أو السائد القائم على الاستبداد والظلم. وهذا شيء طبيعي. فأنت لا تستطيع أن تبني قبل أن تهدم، ولا أن تركب قبل أن تفكك.

وبالتالي فتفكيك النظام القديم للحكم كان الشرط الضروري والأولي لبناء مشروع جديد وصياغة الحداثة السياسية لفرنسا وعموم أوروبا. وهذا ما فعله مونتسكيو في كتابه الكبير الثاني الذي خلّد اسمه على صفحة التاريخ، أي كتاب: «روح القوانين». وهو من أشهر الكتب السياسية في التاريخ. وربما لا يتفوق عليه إلا كتاب السياسة لأرسطو، أو كتاب العقد الاجتماعي لجان جاك روسو. ولكن لماذا يتفوقان عليه؟ إنه يقف على قدم المساواة معهما، بل ويتفوق عليهما في بعض الجوانب.

والواقع أن كتاب مونتسكيو دشن الروح السياسية للعصور الحديثة مثلما فعل كتاب روسو: العقد الاجتماعي. كلاهما كان ذا تأثير حاسم على الثورة الفرنسية وقادتها.

ثم تردف المؤلفة قائلة: إن كتاب «روح القوانين» هو رائعة مونتسكيو وأهم كتبه على الإطلاق. ويمكن القول إنه أمضى حياته كلها في تأليفه أو التحضير له. وقد ظهر للمرة الأولى في جنيف بعد ثلاثين سنة عمل. وبالتالي فهو يشكل خلاصة عمر مونتسكيو وزبدة فكره وتأملاته في السياسة الفرنسية والعالمية.

وقد درس فيه كل المؤسسات السياسية التي كانت سائدة في عصره سواء في فرنسا أو خارجها قبل أن ينتقل إلى المرحلة التالية من العمل: بلورة صيغة جديدة للحكم غير الصيغة التقليدية والاستبدادية السابقة. بهذا المعنى فإن مونتسكيو كان أحد كبار فلاسفة التنوير بالإضافة إلى فولتير، وروسو، وديدرو، وكانط، الخ.

وفي كتابه هذا يدعو مونتسكيو إلى إقامة نظام سياسي ليبرالي جدا: أي منفتح على روح العلم والعقل وبعيد عن التعصب والاستبداد بقدر الإمكان. ولكنه يعتقد أن تطوير النظام السياسي القائم يتطلب منا أولاً تحليل أصل القوانين الماضية التي هيمنت على البشرية في مختلف العصور السابقة.

كما ويتطلب منا تحليل القوانين المعاصرة: أي السائدة في عصره تحت ظل لويس الرابع عشر والخامس عشر. ويرى مونتسكيو أن القوانين السائدة في بلد ما تكون عادة متأثرة بعاداته وتقاليده وعقائده الدينية لا محالة. كما أنها متأثرة بالموقع الجغرافي للبلد ومناخه وإمكانياته الاقتصادية وسوى ذلك.

وهذه هي أول مرة يقوم فيها مفكر ما بدراسة القانون بشكل علمي وموضوعي على هذا النحو الدقيق والمدهش بوضوحه وجرأته ونفاذ بصيرته. وهي هذا الكتاب الكبير يبلور مونتسكيو نظريته عن الفصل بين السلطات الثلاث: أي السلطة التشريعية، فالسلطة التنفيذية، فالسلطة القضائية.

وهذه هي النظرية السياسية الحديثة التي تسيطر على المجتمعات المتقدمة في الغرب.فالسلطة التشريعية تتمثل في البرلمان المنتخب من قبل الشعب.

فهو الذي يسنّ القوانين أو يصوت عليها. وأما السلطة التنفيذية فتتمثل في رئيس الجمهورية والحكومة. وهي المسؤولة عن تنفيذ أو تطبيق القوانين التي يصوت عليها البرلمان. وأما السلطة القضائية فتتمثل بوزارة العدل والقضاة الذين يراقبون عمل الحكومة لكي يروا فيما إذا كان متوافقا مع القانون أم لا.

وأي انتهاك للقانون يتعرض للعقاب من قبل القضاة.ولهذا السبب تصيبنا الدهشة نن أبناء العالم الثالث عندما نجد أن القاضي في فرنسا أو انجلترا يستطيع أن يستجوب الوزراء وكبار الشخصيات في الدولة وأحيانا يحكم عليها بالسجن إذا ما ثبت تورطهم في عملية فسادها أو إثراء غير مشروع أو استغلال للمنصب من أجل تحقيق مصالح شخصية، الخ.

وبالتالي فالنظرية التي بلورها مونتسكيو لا تزال سارية المفعول حتى الآن. بالطبع فقد طرأت عليها تعديلات وتحسينات وتطويرات بمرور الزمن ولكن نواة النظرية أثبتت صحتها وفعاليتها. ثم تضيف المؤلفة قائلة: ينبغي العلم بأن هذا الكتاب الحاسم في تاريخ البشرية تعرض لهجوم كبير في عصره. فقد انتقده المحافظون ورجال الدين المسيحيون بشدة باعتبار أنه ينقض النظام السائد لملوك فرنسا الذين يمثلون ظل الله على الأرض.

ولكن المثقفين المستنيرين وعلى رأسهم دلامبير وديدرو وروسو وفولتير وسواهم رحبوا به أجمل ترحيب ورأوا فيه بداية العصور الحديثة: عصور الحرية والعدل والتسامح.

ولكن بعضهم عاب عليه بعض النزعة المحافظة لأنه يعطي الأولوية للطبقة الأرستقراطية في الحكم. وهذا شيء طبيعي لأن مونتسكيو نفسه كان أرستقراطيا.

ولكن لا ينبغي أن نبالغ في أهمية هذه النقطة المرتبطة بظروف عصرها. فنحن انتقلنا من العصر الأرستقراطي إلى العصر الديمقراطي بعد الثورة الأميركية والثورة الفرنسية. وبالتالي فلم تعد لهذه المسألة من أهمية لأن الزمن تجاوزها.